قصَّة إسماعيل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

رَبِّ أَعِنْ

إسماعيل هو الابن البكر لإبراهيم. وأمُّه هاجر أميرة عربيَّة وقعت في أسر فرعون ملك مصر. وأهداها هذا الملك لسارة زوجة إبراهيم حينما كانت برفقة زوجها في أرض مصر.

ولما كانت سارة لا تنجب، وإبراهيم يرغب بالولد، فقد زوَّجت سارة، هاجر لإبراهيم، لعلَّه ينجب منها ولداً تقرُّ أعين الجميع به. وبالفعل أنجبت هاجر ولداً سُمِّي: إسماعيل.

وشاء الله أن تنجب سارة فيما بعد ولداً أسمته: إسحاق. واشتعلت الغيرة في قلب سارة من هاجر وولدها كيف يحظيان عند إبراهيم بعناية كبيرة واهتمام خاص.

فطلبت من زوجها إبراهيم إبعادهما من أمام عينها. ولم يكترث إبراهيم للأمر، غير أن الله شاء ذلك لحكمةٍ يعْلَمُها. فأمر إبراهيم بإبعادهما من أرض فلسطين حيث كان يسكن.

وامتثل إبراهيم لأمر ربِّه، وحمل هاجر وابنها إسماعيل الرضيع، بعد أن زوَّدهما بالزاد والماء. وذهب بهما إلى صحراء لا زاد فيها ولا ماء، إلى مكَّة قريباً مما صار بيت الله العتيق. وتركهما وأراد أن يمضي في الظاهر، ولكن قلبه كان معلقاً بابنه فابتعد عنه وهو يرقبه بعينه.

وترك إبراهيم هاجر وولدها في تلك البقعة الخالية، وقفل راجعاً، تنفيذاً لأمر ربِّه دون أن يلتفت إليهما كي لا يأخذه الحنين لأهل بيته.

وإذا بهاجر تتعلق بزوجها وتقول له: هل تتركنا هنا وحدنا، في هذا الموضع الموحش المخيف حيث لا يوجد أحد، ولا يوجد ظلٌّ نستظل به؟

فلم يرد عليها بأيِّ كلمة.

وأعادت طلبها له بإلحاح، ولكنه سكت أيضاً.

وفي المرَّة الثالثة طلبت منه تفسيراً لما يحدث. ولم تلق جواباً كما في المرَّتين السابقتين.

وإذا بها تسأله للمرَّة الرابعة بعد أن نفد صبرها:

- آلله أمرك بهذا؟

- حينها أجابها، وقال: نعم.

فقالت: إذن لا يضيِّعُنا.

وما أن ابتعد عن مكة ووصل إلى موضع مرتفع، بحيث يرى هاجر وابنها إسماعيل وهما لا يرونه، التفت إلى هناك، ورفع يديه إلى الله بالدعاء وقال: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: 37]، وقفل راجعاً.

وفي هذا الموضع بقيت هاجر مع ولدها الرضيع، تأكل من الزاد الذي معها، وتشرب من الماء الذي بحوزتها، وترضع ولدها إسماعيل.

وانتهى الزاد، وفرغ الماء من السقاء الذي بحوزتها، ولم تعد تستطيعُ إرضاع ولدها، ودبَّ فيها العطش والجوع، وجاع طفلها.

ماذا عساها أن تفعل من أجل ولدها الرضيع ؟

وبمن تستغيث؟

نظرت يميناً وشمالاً لعلّها ترى أحداً. ولكنها لم تجد من يمدُّ لها يد المساعدة ويعينها على إيجاد الطعام والشراب.

فذهبت مسرعة إلى أقرب جبل منها . . . ذهبت إلى جبل قريب من مكانها يقال له: الصفا، فوقفت عليه لعلّها ترى أحداً يمرُّ بتلك الناحية. ولكنها لم تر أحداً. فنزلت مسرعة عن ذلك الجبل ومشت مهرولة في السهل، لتذهب إلى جبل آخر، يقال له: المروة، فوقفت عليه لعلّها ترى أحداً يغيثها! ولكنها لم ترَ أحداً.

وعادت مرَّة أخرى إلى جبل الصفا، تنظر مرَّة إلى رضيعها الذي يتلوَّى من الصراخ من شدَّة الجوع والعطش ،وتحرِّك يديها لعلَّ مغيثاً يراها.

وذهبت مرَّة أخرى إلى جبل المروة، وكانت بين الجبلين تركض مسرعة مهرولة في مكان معيَّن؛ لأنَّها في ذلك الموضع لم يتسنَّ لها أن ترى وليدها .

وفعلت ذلك سبع مرَّات[1]، وحينما انتهت إلى جبل المروة، كأنَّها سمعت شيئاً.

ونظرت إلى حيث صغيرها، وإذا بها ترى ماءً يخرج من بين رجلي

(1) وما السعي بين الصفا والمروة التي هي من شعائر الحج والعمرة، إلا تيمُّناً وأُسوة بهاجر وبهرولتها وما كابدته هناك بلهفتها على وليدها أن يقضي عطشاً. والهرولة في ذلك المسعى بين ميلين أخضرين، هو المكان الذي كانت تهرول به السيِّدة هاجر مسرعة، لأن من ذلك المكان لم تستطع مشاهدة صغيرها أثناء السعي.

الطفل، فذهبت مسرعة إلى المكان وإذا بعين ماء تتفجر، ولم تصدق نفسها بما تراه.

فأخذت تغسل وجهها وتشرب، ومن لهفتها على الماء خافت وصارت تزمُّ عين الماء وتضمُّها خوفاً من نفاذها. ولو أنها تركتها لكانت عيناً معيناً.

وجلست هاجر بجوار الماء تشرب منه وترتوي مع ولدها، وأخذت ترضعه وسكت ولدها إسماعيل بعد أن شبع. وجاءت الطيور لتشرب من ذلك الماء فأَنِسَتْ هاجر بأن شيئاً حَيًّا موجود في تلك الأرض.

وشاء الله أن يقترب من ذلك الوادي الخالي، قافلة مسافرة نزلت بالقرب من مكَّة للراحة. وإذا بأصحاب القافلة يرون طيوراً تحوم بالقرب من ذلك المكان. وكانوا خبراء في تلك الصحراء، ولم يعرفوا أن بقرب هذا المكان ماء .

فتساءلوا بينهم هل علمتم أنَّه بالقرب من هنا ماء؟ فكانوا يجيبون بعضهم بأن لا ماء في ذلك الموضع.

ولكن الطيور لا تطير ولا توجد إلا بقرب الماء. وعزموا أمرهم على أن يرسلوا منهم من يستطلع الخبر.

وذهب بعضهم إلى حيث تحوم الطيور. وما إن وصلوا، حتى رأوا امرأة جالسة مع ولدها وبقربها عين ماء ، ففرحوا بذلك واستطلعوها الخبر، فقصت عليهم ما كان من أمرها وأمر ولدها وخبر الماء.

فاستأذنوها أن ينزلوا عندها ضيوفاً فقبلت. وجاءت القافلة، وضربت مضاربها بالقرب من زمزم فَأَنِسَتْ بهم. وعاد الجميع بأهاليهم إلى ذلك الموضع، وسكنت القبيلة هناك، واسمها: قبيلة جُرْهُم .

ونشأ إسماعيل في تلك الأرض المباركة، ولعب مع أبناء القبيلة، وتعلم منهم اللغة العربية.

بناء البيت:

وبعد أَنْ كَبُرَ إسماعيل، أمر الله خليله إبراهيم ببناء الكعبة المشرفة، وكان في ذلك الوقت في بلاد الشام فقصد مكة لينفذ الأمر الإلهي. وحينما وصلها سأل عن هاجر وابنه إسماعيل.

وحينما قصد إلى مكان إسماعيل رآه يبري قوساً للصيد. وتعانق الاثنان شوقاً وحنيناً إلى بعضهما. كيف لا وقد مر كثير من الوقت لا يعلمه إلا الله وهما بعيدان عن بعضهما.

وبعد أن استراح إبراهيم من عناء السفر، أخبر ابنه بما جاء من أجله.

فقال له: إن الله قد أمرني أن أقوم بمهمة. فما رأيك ؟.

قال إسماعيل: يا أبت، افعل ما تؤمر.

قال: إن الله أمرني أن أبني في هذا الموضع بيتاً له، وأشار إلى مكان الكعبة، وأمرك أن تعينني عليه.

قال إسماعيل: أعينك بما أُمرت يا أبت إن شاء الله.

وقام الاثنان ببناء بيت لله، الكعبة المشرّفة. وقام إبراهيم بوضع الأحجار في مكانها، بينما إسماعيل يناوله إياها على كتفه.

وهما يبنيان البيت كانا يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ

ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: 127-129]. والرسول الذي أرسل منهم هو محمد ﷺ.

وحينما علا البناء، ولم يعد في مقدور إبراهيم أن يضع الأحجار في أماكنها، استعان بحجر كان هناك. فانغمست رجلاه فيه، ولا يزال هذا الحجر موجوداً، ولا تزال آثار أقدام إبراهيم بارزة فيه. وهو ما يسمى اليوم. بمقام إبراهيم، وموضعه بجوار الكعبة تخليداً لعمل إبراهيم. وقد جعله الله مصلى. ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: 125]. وجعل الله هذا البيت آمناً من المخاوف وملاذَ الملتجئين إليه.

فلما انتهى بناء البيت أمر الله نبيَّه إبراهيم أن يؤذن في الناس بالحج، فجعل لا يمرُّ بقوم إلا قال: أيها الناس، إنه قد بُنِيَ لكم بيت فحُجُّوه، فجعل لا يسمعه أحد إلا قال: «لبيك اللهم لبيك». وأصبح الحجُّ فرضاً على كل مسلم أن يؤدِّيه متى استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وأتمَّ إبراهيم وإسماعيل بناء البيت، ونشرا دين الله بين القبائل الوافدة إلى هناك.

وانتشر الدين الحنيف بين القبائل، وصار المؤمنون يؤمُّون البيت كلما وفدوا إلى مكَّة حُجَّاجاً ومعتمرين. ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: 27].

وعهد الله إلى إبراهيم وإسماعيل تطهير البيت الحرام عن كل ما لا يليق به وتهيئته للعبادة، ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: 125].

ودعا إبراهيم لهذا البلد بسعة الرزق، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا

بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 126].

فاستجاب الله الكريم لدعاء خليله إبراهيم بأن يرزق أهل هذا البلد مؤمنهم وكافرهم. وأن للكافر حساب عسير يوم القيامة.

فكانت الكعبة أول بيت وُضِعَ للناس للعبادة، في حين أن بقية الشعوب والقبائل في سائر الأرض كانوا يبنون البيوت لعبادة الأصنام والتماثيل. ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: 96 - 97].

الذبيح:

في إحدى الليالي التي كان فيها إبراهيم في مكّة رأى حلماً عجيباً. ورؤيا الأنبياء حقٌّ ووحي من الله، فقد رأى إبراهيم أنه يذبح ابنه إسماعيل. وتكرَّر الحلم ثلاث ليال متتالية. يوم التروية فتروّى، ويوم عرفات فعرف أنها أمر من الله، ويوم النحر نفذها. وأتى لابنه وقال له: يا بنيّ، إنّ الله أمرني بأمر أَوَ تعينني عليه.

قال الابن المؤمن البارُّ بوالديه: يا أبت افعل ما تؤمر.

قال إبراهيم: يا بني، إني رأيت في المنام أني أذبحك.

قال إسماعيل على الفور ودون تردُّدٍ، وهو يعلم أن رؤيا الأنبياء وحي وأمر من الله: يا أبت، افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين.

فهذه الطاعة لم ترق لإبليس فجاء على صورة إنسان ووسوس

لإبراهيم بأن لا يقوم بتنفيذ أمر الله. فما كان من نبيِّ الله إبراهيم إلا أن رماه بالحصى.

ولكن إبليس لم يملَّ، فذهب إلى هاجر وقال لها: كيف تتركين ولدك يسير إلى الموت هكذا، وهو ولدك الذي أتيت به إلى هذه الأرض الجدباء، وعانيت الكثير في تربيته؟!.

وكانت هاجر المؤمنة تعرف أن هذا أمر إلهي يجب تنفيذه. فلم تأخذها الأمومة دون تنفيذ أمر الله، فتناولت حصى ورمت بها إبليس.

ولكن إبليس عندما رأى إصرار الأمِّ على تنفيذ أمر الله، لجأ إلى الابن هذه المرَّة لعلَّه يثنيه عن عزمه. ولكن لقي من الابن ما لقي من الأب والأمِّ، في رميه بالحصى.

وما رمي الجمار في منًى في موسم الحج من كل عام، إلَّا إحياء لما كان من قصة الذبح هذه، ولتعليم المسلمين أن لا ينصاعوا لوسوسات إبليس التي تلاقيهم في مراحل حياتهم المختلفة.

وفي عودتنا لإبراهيم وإسماعيل، فقد ذهب الاثنان لتنفيذ أمر الله وسُطِحَ الابن على الأرض على وجهه كي لا يرى الأب وجه ابنه، فيأخذه الحنين.

وما إن رفع السكين لينحر بها ابنه. وإذ بنداء من الله ينادي بإبراهيم: أن يا إبراهيم قد صدَّقت الرؤيا.

وإذا بكبش عظيم قد أرسله الله فداء لإسماعيل. وذُبِحَ الكبش فداء عن إسماعيل، وأصبح الذبح سُنَّةً في عيد الأضحى تيمُّناً بسنَّة إبراهيم في تلبيته لنداء الله.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى

ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ [الصافات: 102 - 111].

زواج إسماعيل:

ما إن بلغ نبيُّ الله إسماعيل مبلغ الرجال، حتى تزوَّج من إحدى فتيات قبيلة جرهم. وسكن معها، وكان من عادته أن يذهب للصيد لتحصيل قوته. فكان أحياناً يطيل الغياب عنها.

وكانت هذه الزوجة سيِّئة الخلق، شديدة التذمُّر، دائمة الشكوى للغريب والقريب، لمن تعرف ولمن لا تعرف.

وكلَّما سألها أحد عن حالها وعن عيشها، تتذمَّر وتتأفَّف من وضعها. ولم يكن يعجبها شيء، بدلاً من أن تحمد الله على ما أنعم عليها من عافية، وقوت، وستر . . . إلخ.

وقدَّر الله أن يأخذ الحنين بقلب إبراهيم لملاقاة عائلته، وزيارة إسماعيل. فجاء مكَّة وسأل عن مسكن ولده، فاستُدِلَّ على مكانه، ولكنه لم يكن هناك، ولم يكن في البيت سوى امرأته.

فأتاها إبراهيم وسألها عن زوجها، فأخبرته أنه ذهب للصيد لإحضار الطعام لهما.

ثم سألها عن حالهم: وما إن سألها حتى ابتدأت تتذمر وتشكو كعادتها.

وقالت له: إننا في ضيق من العيش لا يحتمل، وإن الفقر من حولنا، وإننا بائسون في عيشنا، إلى آخر ما يخطر ببال الإنسان.

فما كان منه إلَّا أن قال لها بأنه سيغادر المكان. ولم يخبرها بأنه والد زوجها؛ بل أوصاها: «أن تقرأ السلام لزوجها بالنيابة عنه، وبأنه لا يرضى له عتبة بابه». ولم تفهم ما يعني هذا الشيخ الجليل بكلامه هذا.

وحينما أتى زوجها إسماعيل من رحلته، وكأنَّه أحسَّ بأن غريباً قد مرَّ بهم. فسألها هل أتانا من أحد اليوم؟ .

قالت من فورها: نعم لقد أتانا شيخ كبير، وسأل عنك.

فقال: ماذا قال لك؟.

قالت: يسلِّم عليك.

قال: وهل قال لك شيئاً؟

قالت: نعم . لقد سألني عن حالنا.

وماذا قلت له؟

قالت: أخبرته بأننا في شظف من العيش.

قال: وهل قال لك شيئاً آخر؟.

قالت: نعم. أوصاني بأن أقول لك: إنه لا يرضى لك عتبة بابك.

قال: ذاك أبي ويريدني أن أفارقك وأطلِّقك.

وعمل إسماعيل بما أوصاه به أبوه.

وقال لزوجته: إلحقي بأهلك، وطلَّقها.

وتزوَّج ثانية من قبيلة جرهم، وإنَّما في هذه المرَّة أنعم الله عليه

بزوجة صالحة، ذات خلق كريم، صبورة، تتحمَّل مع زوجها مصاعب الحياة وتهوِّنها عليه .

وسكنت هذه الزوجة مع زوجها، تحمد الله على ما أنعم عليها بصحبة هذا الزوج الصالح، الذي يفارق أهله سعياً وراء لقمة العيش. وكانت ذا وجه بشوش تحبُّ الضيف، وترحِّب به وتكرمه إذا ما رأته.

وشاء الله أن يعود إبراهيم بعد حين لزيارة ابنه في مكَّة، ولكن في هذه المرَّة أيضاً لم يره، لأنَّه كان في الصيد كعادته لتأمين القوت.

ولم يكن هناك سوى زوجته الجديدة، فقرأ عليها السلام، وردَّت التحيَّة بابتسامة عريضة، ورحَّبت به كضيف، وشيخ غريب.

وعندما سألها عن حالهم، حَمِدَتِ الله على نعمه الكثيرة عليهم، وأنهم بأحسن حال. فقال لها إبراهيم: ما طعامكم؟.

قالت: اللحم والماء. ولم يكن عندهم حينها من القوت سوى الشيء اليسير.

فقال إبراهيم: اللَّهم بارك لهم في لحمهم ومائهم. قالها ثلاث مرات.

وبعد أن استراح قليلاً همّ بالانصراف - ولم يخبرها بأنه والد زوجها - وقال لها قبل أن يغادر المكان: إذا جاء زوجك: أقرئيه السلام، وقولي له: جاء ههنا شيخ من صفته كذا وكذا، وإنه يقول لك: قد رضيت لك عتبة بابك فأثبتها.

وذهب إبراهيم، وفي المساء عاد زوجها إسماعيل، وكأنَّه شعر بأن ضيفاً قد حلَّ بهم .

فسأل زوجته مستفسراً: هل أتانا اليوم أحد؟.

قالت: نعم. لقد حلَّ بنا شيخ كبير.

قال: هل قال شيئاً؟.

قالت: نعم. فهو يسلِّم عليك.

قال إسماعيل: هل أضاف شيئاً؟.

قالت: نعم، لقد سألنا عن حالنا.

وقلت له: بأننا بأسعد حال. وقال: ما طعامكم؟. قلت: اللحم والماء. ودعا لنا.

قال إسماعيل: هل أوصاك بشيء؟.

قالت: نعم. قال لي: بأنَّه يوصيك بتثبيت عتبة بابك.

قال إسماعيل: فذاك أبي. ويريدني أن أبقيك وأحافظ عليك، فأنت العتبة التي يعنيها في كلامه. وأمضيا عمرهما معاً.

ورزق إسماعيل اثني عشر ولداً. وكانوا رؤساء قبائل وسمِّيت العرب المستعربة.

ودعا أهله إلى دين الله وأمرهم بأن يقيموا الصلاة ويؤدُّوا الزكاة، وكان يطيع الله في كل ما يأمره به فنال رضوان الله.

قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ۝٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ۝٥٥﴾ [مريم: 54 - 55].

ولم يكتف إسماعيل بدعوة أهله إلى دين الله؛ بل انطلق في أرض الله يدعو القبائل لنشر دين التوحيد بين الناس، دين أبيه إبراهيم.

وبقي يدعو إلى سبيل ربه إلى أن توفَّاه الله ودفن في الحِجْر بجوار

الكعبة، بجوار أمّه هاجر التي قيل: إنّها دفنت في الحجر أيضاً.

والحجر بجوار الكعبة يسمى إلى اليوم بحجر إسماعيل.

ومنهم من قال: إن وفاته كانت في فلسطين.

ومنهم من قال غير ذلك، والله أعلم.

العبر من قصّة إسماعيل:

يؤخذ من قصّة إسماعيل عدة عبر، منها:

1 - التسليم لقضاء الله، وعدم التذمُّر من الأمور الصعبة التي يمرُّ بها الإنسان فهي خير له وفي صالحه. وما ذهاب هاجر وابنها إسماعيل إلى مكّة في تلك الأرض الجدباء التي لا زرع فيها ولا ماء، إلا أن جلبت الخير كل الخير له ولأمّه. حيث أقيمت هناك مناسك الحجِّ في تلك الأرض المباركة تيمُّناً بما لقياه وما لقيه إبراهيم معهم.

2 - عدم سماع وسوسات إبليس في أمور الحياة كلِّها، والاقتداء بسيرة إبراهيم مع زوجه هاجر وابنهما إسماعيل في رجم إبليس اللعين حينما حاول أن يثني الجميع عن طاعة الله.

3 - يجب أن تقتديَ الأمهات بسيرة السيدة هاجر، وأن لا تأخذهنَّ الأمومة في تقديم الشهداء من أبنائهنَّ دفاعاً عن الحقِّ واسترداد الأرض والشهادة في سبيل الله.

4 - الخير يأتي أحياناً مما يظنُّه الإنسان شرًّا.

5 - إن من يثق بالله يحفظه الله، ولا يصيبه ما يكره.

6 - ذِكْرُ الصالحين بأعمالهم الصالحة يستمرُّ إلى آخر الزمان.

7 - إخراج الماء من قلب الصحراء، كإخراج النور من قلب المؤمن، فينتشر الخير الحسيُّ بالماء، والمعنويُّ بالإيمان.

8 - أكرم الله العرب فجعلهم أبناء نبيِّه إسماعيل.

9 - جعل الله مكَّة نقطةَ تزودٍ بالماء بين اليمن وفلسطين. فجاءها الخير من المارِّين بها. ووهبت الماء للمتزوِّدين.

10 - ماء زمزم يُذَكّر الناس بثقة هاجر في ربِّها واعتمادها عليه.

11 - يجب التحلِّي بالأخلاق الحميدة والصبر على صعوبات الحياة وعدم الشكوى للغريب والقريب. كما حصل مع زوجة إسماعيل الأولى؛ بل يجب التأسِّي بأخلاق زوجة إسماعيل الثانية، لأنَّ الأخلاق الحميدة تحبِّب المرأة إلى زوجها ويذكرها الجميع بالخير.